الفصل التاسع

ثقافة من أجل القتل
الحقد على «مصر»، وكراهية «المصريين»!

١ ـ عبادة القوة فى المفهوم التوراتى والإسرائيلى المعاصر

قَدَّمت إسرائيل جيشها للعالم، باعتباره جيش «اليد الطاهرة» صاحب الرسالة الإنسانية، المبّرأ من النقائص والدنايا، وهى كذبة كبيرة من أكاذيب الصهيونية المستمرة على امتداد تاريخها الطويل، إذ يصعب ـ بالفعل ـ رصد وحصر الجرائم الصغرى والكبرى، التى نفذها الجيش الإسرائيلى بـ «دم بارد»، على امتداد فترات تكوينه الأولى، قبل إعلان «الدولة»، وبعد تكوينها، وحتى الآن.

فعملية الاغتصاب للأرض العربية الفلسطينية، واكبها إدراك صهيونى عميق بأن نجاح مخطط تهويد فلسطين، فى مواجهة الرفض العنيد، والمستمر، لأصحاب الوطن الأصليين، لابد وأن يعتمد على قوة الفرض، وإكراه العنف، واتفق فى ذلك (يسار) الحركة الصهيونية، مع (يمينها) فـ «الوضع فى فلسطين ـ كما رأى «بن جوريون» ـ لا يمكن أن يُسَّوى إلا بالقوة العسكرية، ولذا فإسرائيل «لا يمكن أن تعيش إلا بالقوة والسلاح»[١]، فى حين كان شعار «مناحم بيجن» الشهير: «أنا أحارب.. إذاً فأنا موجود» و«كن أخى وإلا قتلتك»[٢].

وهما فى هذا السياق يرددان ـ بنغمات متباينة ـ مقولة «زئيف

(١) ديفيد بن جوريون، إسرائيل: سنوات التحدى، نيويورك، هولت راينهارت ونستون، ١٩٦٣، ص: ٦٥.

(٢) مذكورة فى إبراهيم العابد، العنف والسلام: دراسة فى الاستراتيجية الصهيونية، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث، سلسلة دراسات فلسطينية، رقم ١٠، مارس ١٩٦٧، ص: ١٩.

جابوتنسكى» الزعيم الإرهابى الشهير، والأب الروحى لـ «شامير» و «شارون» و«نتنياهو»، «إن التوراة والسيف أُنزلا علينا من السماء»[1].

لقد أدت سيادة فكرة تمجيد القوة الباطشة، والعنف، إضافة إلى عملية العسكرة، «الإسبارطية»، المستمرة للمجتمع الإسرائيلى، والتى تصاعدت معدلاتها بوتيرة هائلة على مدار كل سنوات الدولة، السابقة، وكذلك الحقائق التى أفرزتها «الأحذية العسكرية» الصهيونية الثقيلة على أرض الواقع العربى، والنجاحات الهائلة التى تحققت، بالفعل، كنتيجة أساسية من نتائج تفسخ وانهيار الإرادة الرسمية العربية، إلى انتصارات استراتيجية لآلة الحرب العسكرية الإسرائيلية، الأمر الذى دعم بدوره من سيادة أفكار تمجيد العنف والقوة الباطشة، حتى أصبحت هذه الأفكار لصيقة بالشخصية الإسرائيلية، وجزءاً عضوياً من مكوناتها، ونفذت عميقاً إلى آغوارها السحيقة: فالتقدير المتزايد لبطش القوة المتفوقة، ودورها فى الحفاظ على كيان الدولة وحمايته، وتأليه المحارب الصهيونى، وتسليط الضوء على (بطولاته) المدَّعاه، واحتقار القيم الإنسانية الرفيعة، والأعراف البشرية المتفق عليها فى الصراعات المسلحة (مثلما حدث مع الأسرى المصريين العزل، وأبناء الشعب الفلسطينى من قبل)، باتت تصوغ الوجدان الصهيونى، المفرد والجمعى، وتؤثر فى توجهاته الأساسية، وتنعكس فى مسلكياته اليومية، إلى الحد الذى يصفه الجنرال (السابق)، «إسرائيل تال»، بقوله: «إن مصير أى شعب من الشعوب يشكل سلوكه، ومصيرنا يجعل منا أمة من المحاربين، لأننا قد لا نستطيع أن نتراجع، وجنودنا يوقنون أنهم لا يملكون أن يخسروا، وإلا حُكم على نسائهم وأطفالهم بالإعدام»[2].

(١) مقاتل ونبى: قصة فلاديمير جابوتنسكى ـ السنوات الأخيرة، نيويورك: أ. س. برس وشركاه، ١٩٦١، ص: ٢٨٢، مذكورة فى المصدر السابق.

(٢) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، العسكرية الصهيونية، (جـ٢)، القاهرة، مؤسسة الأهرام، ١٩٧٤، ص: ٨٧.

٢ ـ جذور «إرهاب الدولة الإسرائيلية»:

ولم يأت هذا العنف الأهوج، المنظم، المتصاعد، والذى شَكَّلَ ركيزة ما أُطلق عليه ـ عن حق ـ «إرهاب الدولة الإسرائيلية» من فراغ.. لقد استند إلى محددات موروثة، وارتكز على مقولات مستقاة، من تاريخ موغل فى القدم، مبنى على مجموعة من الأساطير الدائية، والحكايات الساذجة، الملفقة، التى صاغها ـ بعد قرون من التاريخ المفترض وقوعها فيه ـ (الحكماء) ورواة القصص الدينى ودهاقنة الحاخامات، مستفيدين من مرويات وآدبيات الدول، والقبائل، والحضارات التى احتكوا بها، والتى كانت محيطة بمجال حركتهم من كل جانب: الفرعونية، والبابلية، والأشورية، والكنعانية، والفينيقية.. إلخ، وسعوا بواسطتها إلى الحفاظ على لحمة القبائل اليهودية، وتماسك مقوماتها الشخصية، فى مواجهة المحن الشديدة التى مرت بها، والصدمات العنيفة التى هددت بقاءها، فعوضوا استكانتها وقيود المذلة التى رسفت فيه القرون ـ فى جلِّ الأماكن التى انتشروا بها ـ عن طريق أساطير للبطولة من صنع الخيال ونسج الأوهام، وبواسطة إنجازات تاريخ مصطنع، مارسوا خلاله كل ما مورس ضدهم من قهر، على الآخرين*، بعمليات الانتقام والتعويض، عن طريق مسلسل من القتل والذبح والحرق للخصوم والمنافسين والأعداء، بصورة قل نظيرها فى التراث المكتوب أو المحكى لأية مجموعة بشرية أخرى، حيث يتحول الإله فى كتبهم إلى صورة مقززة للبطش الأهوج والانتقام، فـ «الرب رجل حرب»[1]، منتقم، شرير، والأنبياء سَفَّاحون، والقادة التاريخيون ليسوا سوى مصاصى دماء وقطاع طرق.

وقد جَسَّد «سفر يشوع»، الذى يُرجع إليه باعتباره مصدراً أساسياً

* «فقال الرب: إنى قد رأيت مَذَلَّة شعبى الذى بمصر، وسمعت صراخه بسبب مُسَخِّريه، وعلمت بآلامه، فنزلت لأنقذه من أيدى المصريين، وأصعده من هذه الأرض إلى أرض طيّبة واسعة، إلى أرض تدر لبناً وعسلاً». (سفر الخروج ـ ٣: ٥).

(١) سفر «الخروج» ـ ١٥.

لتعاليم الأصولية اليهودية والصهيونية، هذه الرؤى الدموية، وحدد موقف «إسرائيل» من «الأغيار»، حيث أباح إبادتهم «بحد السيف» وحرقهم وتخريب أراضيهم وممتلكاتهم:

ـ فحينما تم فتح أريحا، فإنهم «استولوا على المدينة، وحرموا كل ما فى المدينة من الرجل وحتى المرأة، ومن الشاب وحتى الشيخ، حتى البقر والغنم والحمير فقتلوهم بحد السيف»[١]... «وأحرقوا المدينة وكل ما فيها بالنار، إلا الفضة والذهب وآنية النحاس (طبعاً)، فإنهم جعلوها فى بيت الرب»[٢].. «أما أريحا فقتلوا جميع ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ وحتى البقر»[٣]

ـ وتتكرر الممارسات الهمجية نفسها عند الاستيلاء على مدينة اسمها «العى»، فيذكر «سفر يشوع»: «ولما انتهى بنو إسرائيل من قتل جميع سكان «العى» فى الحقول وفى البرية حيث طاردوهم، وسقطوا جميعاً بحد السيف عن آخرهم، رجع كل إلى «العى» وضربوها بحد السيف، وكان جملة من سقط فى ذلك اليوم من رجل وامرأة إثنى عشر ألفاً، جميع أهل العى»[٤].. «وأحرق يشوع «العى» وجعلها ركاماً للأبد، خراباً إلى هذا اليوم»[٥].

... أما «لاكيش ولينة»، فلم يكن ما نالها على أيدى «إسرائيل» بأقل مما نال «أريحا» و«العى»، إذ «أسلم الرب «لاكيش» إلى أيدى «إسرائيل»، فاستولى عليها فى اليوم الثانى وضربها بحد السيف، وقتل كل نفس فيها كما فعل بـ «لينة»، حينئذ صعد «هورام»، ملك «جازر»، لنجدة «لاكيش»، فضربه «يشوع»، هو وقومه، حتى لم يبق منهم باقياً»[٦].

وكذلك أيضاً كان هذا الأسلوب التوراتى هو ذاته المتبع والمجَرَّب فى

(١) سفر «يشوع» ـ ٦: ٢١.
(٢) سفر «يشوع» ـ ٦: ٢٤.
(٣) سفر «يشوع» ـ ٨: ٢٨/٢١.
(٤) سفر «يشوع» ـ ٨: ٢٤.
(٥) سفر «يشوع» ـ ٨: ٢٨.
(٦) سفر «يشوع» ـ ٨: ٢١.

«ميروم»، حيث «أسلمهم الرب إلى أيدى إسرائيل»، فضربوهم وطاردوهم إلى «صيدون» الكبيرة، و«مسرفوت حييم» و«وادى المصفاة» شرقاً، وضربوهم حتى لم يبق منهم باق، وصنع بهم «يشوع» كما قال الرب: عاقب خيلهم، وأحرق مركباتهم بالنار»(١).

.. «لأن ذلك كان من قِبل الرب، فقسّى قلوبهم حتى خرجوا على بنى إسرائيل للقتال، لكى يُحرَّموا ولا يُرحموا، بل يُستأصلوا كما أمر الرب موسى»(٢). وهو ذاته ما حدث مع «المديانيين»:.. «وكما أمر الرب قتلوا كل ذكر» وسبى بنو إسرائيل نساء «مديان»، «وأحرقوا جميع مدنهم»، وحينما عادوا إلى موسى «سخط موسى.. وقال لهم هل أبقيتم كل أنثى حية.. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها»(٣).

وبصرف النظر عن المبالغات غير المنطقية، وعن التضارب وركاكة التصوير، وحتى لا معقولية الواقعة وكذبها التاريخى، بصرف النظر عن كل ذلك، فالإلحاح المستمر على أن مهمة «رب الجنود» الأساسية هى تقتيل الشعوب المنافسة، وذبح الجيران، وسفك دم «الأغيار»، وتقديم هذه الأكاذيب والاختلاقات باعتبارها «أوامر إلهية» وتوجهات ذات طبيعة مقدسة، ساعد على خلق انتشاء صهيونى بفكرة القوة المجردة، واحتقار وكراهية غير اليهود، وتقديس لإله القدرة المسلحة، وتمجيدها، وتزيينها باعتبارها غاية مطلوبة فى حد ذاتها، وممارستها تمثل نوعاً من التقرب للإله، وهو ما مهد الأرض تماماً لولادة الفاشية الأصولية اليهودية، كالكاهانية وتوابعها، وجعل من المنطقى، بل ومن الطبيعى، أن يكون لـ «جولد شتاين»، سفاح مجزرة «الخليل»، رؤية، يصور من خلالها أفكاره ومفاهيمه عن «الشعب اليهودى، الذى هو مثل نعجة وسط سبعين ذئباً ومن المستحيل للشعب اليهودى أن يعيش مع العرب، لقد سئمنا

(١) سفر «يشوع» ـ ١١: ٧.

(٢) سفر «يشوع» ـ ١١: ٢٠.

(٣) سفر «الأعداد» ـ ٣١: ١٨/٩.

منهم (من العرب).. إنهم أشبه بمرض خطر مثل الطاعون»، وما داموا مثل «الطاعون» فهناك، «مثلما قال «جولد شتاين»، ترجيعاً لنص مقدس من «سفر الجامعة ، «زمن للقتل، وهناك زمن للمعالجة»[1]، وقد حل زمن القتل وانقضى وقت العلاج.

٣ ـ ضربات مصر، الحقد الذى لا يغيب

وفى هذا السياق، يلفت النظر بشدة، الكراهية العميقة الغور، المضمنة داخل النص المقدس، التوراتى، الذى يؤمن به «شعب إسرائيل» ويستقى تعاليمه من بين ثنايا سطوره لمصر والمصريين، وهى كراهية مفهومة الأسباب وإن كانت غير مقبولة التبرير، يفسرها ـ على الأرجح ـ رغبة دفينة للانتقام من فترات عبودية قديمة لا زالت محفورة فى الأعماق اليهودية/ الصهيونية، لم يقلل من حدتها انطواء الأحقاب ولا تعاقب القرون، بل زادها أواراً.. فنى «سفر الخروج» يوصى النص المقدس «شعب إسرائيل» لدى مغادرته مصر، وقد عاش فيها نحو أربعمائة وثلاثين عاماً، بسلب ثروات مصر، ونهب خيراتها (نهباً مقدساً بالطبع)، وبعد أن «أوتى الشعب حظوة فى عيون المصريين».. «إذا انصرفتم، فلا تنصرفون فارغين، بل تطلب المرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أوانى من فضة وذهب وثياباً تجعلونها عل بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين [2].. «وفعل بنو إسرائيل كما أمر موسى، فطلبوا من المصريين أوانى من فضة وأوانى من ذهب وثياباً، وأنال الرب الشعب حظوة فى عيون المصريين، فأعاروهم إياها ـ وهكذا سلبوا المصريين»[3].

وبالرغم من تمتع بنى إسرائيل بحياة رغدة فى مصر، أو بتعبير التوراة

(١) انظر كتاب: أمنون كابليوك، الخليل: مجزرة معلنة، ترجمة: جريدة «الحياة» الدولية، لندن، ١٩٩٤/١١/٦. ويتضمن نص حديث لـ «باروخ جولد شتاين»، قبل تنفيذه لمذبحة الحرم الابراهيمى بتسعة أيام فقط، أجراه الصحفى الأمريكى «توماس روبرتس».

(٢) سفر «الخروج» ـ ٣: ٢١.

(٣) سفر «الخروج» ـ ١٢: ٣٥.

نفسها، بالرغم من أن الرب آتى الإسرائيليين «حظوة فى عيون المصريين، وموسى أيضاً كان عظيماً جداً فى مصر فى عيون حاشية فرعون وفى عيون الشعب»[١]، فلم يتورع «إله إسرائيل» ـ بعد أن تمت عملية النهب التاريخى المنظم لثروات وذهب وفضة المصريين ـ عن أن ينهال بالضربات (الإلهية) على ذلك الشعب الكريم المضياف!، محددةً طبيعة العلاقة التاريخية، الدائمة ومضمونها، «لكى تعرفوا أن الرب يميز بين مصر وإسرائيل»[٢] إلى الأبد.

أنا الرب، يقول «إله إسرائيل»،: «ها أنا ضاربٌ بالعصا التى بيدى على المياه التى فى النيل، فتنقلب دماً، السمك الذى فى النهر يموت، فينتن النيل ولا يستطيع المصريون أن يشربوا ماء النيل»![٣].

وقال الرب لـ «موسى»: «قل لهارون: خذ عصاك، ومد يدك إلى مياه المصريين وأنهارهم وقنواتهم وسائر خزانات مياهم، فتصير دماً، ويكون دم فى كل أرض مصر، حتى فى الأشجار والحجارة»[٤].. «ففعل كذلك «موسى» و«هارون» كما أمر الرب.. فانقلب كل الماء الذى فى النيل دماً، والسمك الذى فى النيل مات، وأنتن النيل فلم يستطع المصريون أن يشربوا من ماء النيل، وكان الدم فى كل أرض مصر»[٥]، وبعد ذلك توالت الضربات: **الثانية:** الضفادع، **الثالثة:** البعوض، **الرابعة:** الذباب، **الخامسة:** موت المواشى، **السادسة:** الفردج، **السابعة:** البَرَدَ، **الثامنة:** الجراد، **التاسعة:** الظلام، **العاشرة:** موت أبكار المصريين»[٦].

ولم يعد شىء آخر يمكن أن يحل بوادى النيل المقدس، من بلايا ورزايا وكوارث، لا تُعَدُّ ولا تُحصى، بعد أن أكمل «موسى» الصورة حين هتف: «كذا الرب قال: إنى نحو نصف الليل أخرج فى وسط مصر، فيموت كل بكر فى

(١) سفر «الخروج» ـ ١١: ٢.
(٢) سفر «الخروج» ـ ١١: ٧.
(٣) سفر «الخروج» ـ ١١: ٧.
(٤) سفر «الخروج» ـ ٧: ١٩.
(٥) سفر «الخروج» ـ ٧: ٢٠.
(٦) دراسة تفاصيل الضربات العشر، انظر سفر «الخروج» ـ ٧/٨/٩/١٠/١١/١٢.

أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على العرش إلى بكر الخادمة التى وراء الرحى وجميع أبكار البهائم، ويكون صراخٌ عظيمٌ فى أرض مصر لم يكن مثله، ولن يكون».. «وكان صراخ عظيم فى أرض مصر، إذ لم يكن بيت إلا وفيه ميت»[1].

فحينما تكون هذه هى الخلفية العقيدية لجيش يحارب فلا يمكن أن يستغرب المرء الدم البارد الذى مورست به، عمليات قتل العرب فى فلسطين، قبل التقسيم وبعده، ولا مبرر للدهشة أمام همجية عملية قتل الأسرى المصريين العُزل، أو مجزرة كـ «كفر قاسم» أو «قبية» أو «دير ياسين» أو «بحر البقر» أو «أبو زعبل»، ولا يُعتبر، فى ظل هذه الثقافة، أمراً شاذاً، سلوك الجيش الإسرائيلى فى لبنان والأراضى المحتلة، وتجدد الدعوات لـ «الترانسفير»، أى «الطرد» و«التطهير العرقى»، و«تكسير العظام».. إلخ، فهى دعوات منسجمة مع هذا المفهوم، ومتسقة مع ذلك التراث، ويصبح من السذاجة بمكان التعويل على «حسن النية»، و«كلمة الشرف»، فى مواجهة هذا الجيش المدجج من أخمص قدميه وحتى أعلى هامته بالسلاح، والذى يملك وحده ترسانة نووية تضعه فى مرتبة الدولة الذرية الثالثة، فى العالم، بعد كلٍّ من الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، ومحتلاً مركزاً متقدماً يسبق كل من انجلترا وفرنسا والصين بمراحل، كما يسبق كافة الدول العربية مجتمعة بعشرات طويلة من السنين.

ولسنا نحن وحدنا الذى يقول هذا، بل قاله قبلنا شخص يهودى، يقظ الضمير، هو البروفيسور «إسرائيل شاحاك»، فى كتابه: «التاريخ اليهودى، الديانة اليهودية: وطأة ثلاثة آلاف سنة»: «إن إسرائيل ليست ديمقراطية بسبب تطبيق الأيديولوجية اليهودية الموجهة ضد غير اليهود جميعاً، وضد اليهود الذين يعارضون هذه الأيديولوجية، وسيتواصل هذا الخطر طالما تعزز عاملان معتمدان حالياً: مواصلة تعزيز الطابع اليهودى الإسرائيلى، ومواصلة

(١) المصدر نفسه.

تعزيز قوتها وخاصة قدراتها النووية»[1]، إنها «ديمقراطية انتقامية»، فى أحسن الأحوال، تتحول تحولاً فظاً فى مواجهة الخصوم والأعداء إلى النقيض تماماً وهو ما أكده أيضاً كاتب يهودى من أصل عراقى، هو «إسحاق بارموشيه»، باعترافه: «فى موضوع المناطق المحتلة، نحن أقل ديمقراطية من أَشَرِّ الديكتاتوريات عُتّواً، إن ديموقراطيتنا هى لليهود فقط!»[2].

والأغرب مما تقدم، أن هذا الجيش، «صاحب الرسالة»، الذى نفخت الدعاية الصهيونية وبالغت فى صورته وأيديولوچيته وطهارته وأخلاقياته، لديه تعليمات وأوامر واضحة بألا يطلق النار أبداً، وأياً كانت الظروف، على المستوطنين الصهاينة، العنصريين، حتى وهم يفتحون نيرانهم الهمجية على الأبرياء العزل، من المصلين والنساء والأطفال، فحسب شهادة الكولونيل «منير طيار»، قائد «وحدة حرس الحدود» بالخليل: «الأوامر تقضى بعدم إطلاق النار، فى أى ظرف كان، على مستوطن أو على يهودى، بشكل عام، وهو يطلق النار على شخص ما»، وعندما سُئل الكولونيل «طيار» أمام لجنة التحقيق فى مجزرة الخليل، جاءت إفادته قاطعة:

سؤال: عندما يطلق مستوطن النار على مصلين، ألا يمكنكم منعها حتى بإطلاق النار بين رجليه؟.

جواب: كلا يجب الاختباء لتجنب الإصابة، والانتظار إلى أن يكف عن الإطلاق، عندها تجب السيطرة عليه من دون اللجوء إلى القوة[3].

وفى اجتماع لقائد الألوية مع قائد الفرقة العسكرية فى الضفة الغربية، الجنرال «شاؤول موفاز»، أعاد تكرار هذه الإجابة على السؤال نفسه، وعندما

---

(١) مذكورة فى عرض للكتاب بقلم «محمود الريماوى»، جريدة «الحياة» الدولية، لندن، ١٩٩٦/١/١٤.

(٢) جريدة «الحياة» الدولية، لندن، ١٩٩٥/١٠/١٧.

(٣) آمنون كابليوك، مصدر سبق ذكره.

ألحَّ الضباط فى استيضاح الرد، كرر حاسماً: «لا تطلق النار على يهودى. نقطة.. هذا كل شىء»[١].

ومن سيادة فلسفة القوة هذه تتأكد قيّم العنصرية، واحتقار البشر، والارتكاز على العنف، لتثبيت مقومات الدولة.

٤ ـ أطفال إسرائيل: يجب قتل كل العرب

بناء على ما تقدم: فإن مسألة الميل الطبيعى لدى المسئولين فى الدولة الصهيونية لتثقيف سكانها بثقافة ترتكز على أسس عدوانية، تُبرر الهيمنة على المنطقة العربية بأسباب توراتية، وتجعل من عمليات التنكيل بالمواطنين العرب، أصحاب الديار الأصليين، مهمة مقدسة، مشروعة دينياً، بحسب قواعد «الهالاخاه». (الشريعة).. يبدو أمراً منطقياً، ومنسجماً مع سياق نشأة الفكرة الصهيونية، وخطوات تنفيذها على أرض الواقع.

إن تحويل إسرائيل إلى «أسبارطه عصرية»[٢]، كما وصفها بحق «إيان لوستك»، يقتضى عسكرة كل شئون الحياة، ويستوجب ـ وهذا هو المهم ـ تنشئة جيل يؤمن بعيادة القوة، ويؤلِّه السلاح، ويسعى إلى استكمال مسيرة اغتصاب الأرض، وضمّها للمركز الصهيونى، وذلك لأن «ما نحن فى إسرائيل إلا رواد فى طليعة الشعب اليهودى كله، ودولة إسرائيل كما هى الآن لم تمثل تحقيق الصهيونية بتمامها: إنها دولة فى طور النمو... ومهمتنا لم تُنجز بعد: .. فالدولة يجب أن تُشَكِّلَ ملاذاً للشعب اليهودى كله. والشعب العربى لن يقبل هذه الفكرة أبداً..»[٣].

وفى مواجهة الرفض العربى الطبيعى، والمفهوم والمتوقع، ينبغى الإعداد

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) إيان لوستك، مصدر سبق ذكره، ص: ١٦٠.

(3) The War Aims of The People of Israel.

مذكورة فى إيان لوستيك، مصدر سبق ذكره، ص: ١٦٠.

لمعركة طويلة قد تستمر أجيالاً، وتستغرق عشرات السنين، مهما تحققت خلال هذه الحرب من هدنات مؤقتة، أو اتفاقيات هشة لسلمٍ لا مستقبل له.

ومن هنا فإن تربية الأجيال اليهودية الجديدة من الصغار، وتهيئتها لاستلام السلاح، وتعليمها أسس الضغط على الزناد، وقت الحاجة، أمر حتمى وضرورى للغاية، بل إن مصير إسرائيل، بكامله، متوقف على النجاح فى هذه المهمة، حيث: «تؤلف الدبّابة كما يرى «جاكوب كلاتزمان»، عاملاً من عوامل الأمن والسلامة على المدى القريب، لكن المدرسة والجامعة هى العوامل الأكثر أهمية بالنسبة للمستقبل البعيد.. إن التربية هى أيضاً من مستلزمات الدفاع الوطنى»[1]، ومن هنا «يكمن أصل المسألة، فى مدى استعداد الجيل المقبل للقتال.. ولابد للحل من أن يبدأ الآن فى رياض الأطفال، علينا أن نُرَبِّى الأطفال بحيث يقدمون من تلقاء أنفسهم الرد الروحى ـ الخلقى على أعدائنا، أو أن يضربوا بقبضتهم إذا ما دعت الحاجة. لكن علينا أن نبدأ بتعليمهم فى رياض الأطفال، لأنه حينما يصل الفتى إلى الجيش يكون الوقت قد فات»[2]. هكذا يقول «رفائيل إيتان»، رئيس الأركان الإسرائيلى الأسبق، وزعيم حزب «تسومت» اليمينى المتطرف.

٥ ـ صناعة «أطفال الدولة الإسبارطية»

ومن أجل تحقيق هذه الغاية، تتم صياغة أو صناعة «إنسان (إسرائيلى) ذى بُعدٍ واحدٍ، مفتون بالعنف والقوة وبدوره التاريخى المحاط بالعناية الإلهية الملهمة، ويتم «تعليب» المواليد الجدد لكى يصبحوا متوائمين مع حاجات «إسبارطه» الصهيونية، وهو ما عَبَّرَ عنه «يوسى ميلمان» أبلغ تعبير:

(١) مذكورة فى: د. أسعد رزوق، فى المجتمع الإسرائيلى، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١، ص: ٩٠.

(2) Tzomet Expects a Green Light From The Settlements da, Neukuda, 67, December 23/1983, pp. 26 - 27.

مذكورة فى إيان لوستيك، مصدر سبق ذكره، ص: ١٦٠.

«إن النظام (الإسرائيلى) لا يحاول أن يعتقل الشخصية الفردية والتفكير المستقل، بل إنه يحفز التفكير الجماعى والتنسيق المشترك والعمل كأنهم خط إنتاج فى معمل ما، حيث عليهم إنتاج بضاعة ذات قياس واحد.. والتى هى أطفالنا»[1].. إن هؤلاء الأطفال المصنّعون حسب «المواصفات القياسية» لدولة العنف والإرهاب المقنن، يدرسون طبيعة البلاد والجغرافيا التى تخدم الغاية نفسها، وتستهدف الرسالة ذاتها: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض!»، أما التاريخ، فهو «ترجمة ذات بُعدٍ واحدٍ، تبدأ من احتلال اليهود لدولة «إسرائيل إيريتز»، مع التركيز على «حرب الاستقلال» عام ١٩٤٨ وما بعدهما».

«إنه تاريخ مرسوم بالأبيض والأسود، يشبه فى ذلك سيرة التاريخ الأمريكى التى تجنبت ببراعة فائقة الحقيقة المخجلة المتعلقة بذبح أبناء أمريكا الأصليين. وتملك أسطورة إسرائيل أبناء طيبين وأبناء شريرين، يفوز الأبناء الطيبون بالاعتماد على السينما الغربية، وعلى بعض صيغ الأفلام المبتذلة بالعدالة الطبيعية، وهنا ينسج الإسرائيلى لتاريخه قصصاً عن صراط الأمة المستقيمة الذى لا يخذل أحداً، وكان دوماً المكان المرغوب، وتتحدث لك الأسطورة نفسها عن كيف تطلع الإسرائيلى، دون كلل، ليفتح نوافذ فرصة السلام للآخرين، بيد أن العرب ـ الأبناء الشريرين ـ أغلقوا هذه النوافذ.. وذهبوا للحرب»[2].

لقد خلطت إسرائيل الشوفينية القومية بحليب الأم، ومَجَّدَتْ أدوات القهر المسلح، لخلق مواطن معجون بآلات الدمار ومتوحد معها.. إن إسرائيل، مرة أخرى كما يقول «ميلمان»: «تشجع صغارها على زيارة معارض الأسلحة والجيش، بدلاً من حدائق التسلية، كما يفعل أترابهم فى باقى أماكن العالم»[3].. وإلى الدبابات وناقلات الجنود «يذهب عشرات الأطفال يصحبهم آباؤهم ليتقافزوا فوق لُعب الدمار ويتحدثوا إلى طاقمها.. ويرى

(١) يوسى ميلمان، مصدر سبق ذكره، ص: ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ص: ١٦٤ ـ ١٦٧.

أغلب الإسرائيليين هذه العلاقة أمراً طبيعياً.. فالأطفال وُلدوا ليعبدوا العسكرية»[١].. وفى هذا السياق لن يُستغرب أبداً أنه «إذا كان دعاء طالب الثانوى الأمريكى لله، أن يلتحق بجامعة «آفرليج»، فإن نظيره الإسرائيلى لا يطمع لغير أن ينتسب إلى إحدى هذه الوحدات الممتازة فى القوات المسلحة»[٢]، كما «إن الإسرائيلى الذى أنهى خدمته العسكرية فى الوحدة المناسبة.. سيجد أمامه الطريق مُعَبداً للنجاح»[٣]. ومن هنا نفهم لماذا ـ بعد حرب ١٩٦٧ ـ مَثّلَ «موشى دايان» للإسرائيليين، بالرقعة السوداء التى تغطى إحدى عينيه، «نصف إله»، أو «أسطورة حية تمشى على قدمين».

ولقد فعلت هذه المناهج التربوية، التى استُخدمت بكفاءة لعدة عقود، فعلها فى أذهان «أطفال الدولة»، الذين تربوا، فى الكيبوتسات والمعاهد التعليمية، الدينية أو الدنيوية، على مفاهيم العنصرية المتطرفة والاستعلاء، ويثبت استطلاع للرأى أجرته مؤسسة «فان لير» التربوية فى إسرائيل، بين الشبان الصغار، أن ٦٠٪ من المتدينين، و٥٠٪ من أبناء الطوائف الشرقية يؤيدون نظريات العنصرى الفاشى، «مائير كاهانا»، وكذلك يؤيدها ٥٠٪ من طلاب المدارس المهنية و٣٥٪ من طلاب المدارس النظرية، وفى شهر سبتمبر ١٩٨٤، أظهر استطلاع آخر للرأى بين مجموعات أخرى من الشباب الإسرائيليين، أن ٥٧٪ يؤيدون طرد العرب من الأراضى المحتلة، و٣٨٪ يتحمسون للمنظمات الإرهابية التى تهاجم العرب فتقتلهم وتدمر ممتلكاتهم[٤]، وفى تحقيق صحفى مع عدد من طلاب شباب بكيبوتس «كفار يلوم»، عشية تجنيدهم للجيش، نقرأ التصريحات التالية:

ـ «مأساة هذه الدولة هم العرب.. أنا لا أحبهم»!

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) درويش ناصر (المحامى)، مصدر سبق ذكره، ص ص: ١١٣ ـ ١١٤.

- «فى قلوبنا شفقة ورحمة أكثر مما يجب.. يجب قتل (المخربين)، وإن استسلموا، يجب قتلهم وقطع رؤوسهم وإلقاؤها وسط الساحة العامة، حتى يرى العرب ويرتدعوا».

- «يجب قتل العرب إذا لم يتواجد فى المكان صحفيون وشاه، لتفادى الفضائح والمضاعفات».

- «فى رأيى يجب قتل كل العرب».

- «إذا سنحت الفرصة لقتل العرب فيجب قتلهم وبأسرع ما يمكن، من جهتى يجب قتل كل العرب».

- «إن مكان العرب هو الأردن.. فلماذا لا يُرَحَّلون إليها؟».

- «إذا كانوا (الفلسطينيين) يرغبون فى إقامة دولة.. إذن فليرحلوا إلى الأردن.. أما إذا كانوا يرغبون بمواصلة العيش هنا، فعليهم أن يخرسوا»!

- «لو كان للحاخام «كهانا» احتمال للوصول إلى سدة الحكم لما صوتت فى الانتخابات إلا له. الوسائل التى يقترحها صحيحة».

- «بالإمكان قذف العرب إلى البحر.. يطيب لى لو تحقق هذا»[1].

إن تلقين الطلاب والتلاميذ الصغار يتم عبر المدرسة، وساحة اللعب، ووسائل الإعلام، والكيبوتس، والمكتبة، حيث تشرح لهم الكتب بإسهاب «عن فظاظة العرب وبشاعتهم، وأذرعهم الضخمة كثيفة الشعر، والأفواه المشوهة»، وتتحدث عن حياتهم البدائية، البدوية المتخلفة.

.. «إن مستنقع الفاشية العنصرية يكمن فى السياسة التوجيهية للحكومة ابتداء من المدارس الابتدائية ماراً بالثانوية فالمدرسة العسكرية.. فمدرسة الاحتلال، فالوضع الاجتماعى والأخلاقى السائد فى إسرائيل اليوم، لا يدع مجالاً للشك فى أن استمرار الاحتلال مع كل ما يرافقه من قمع «كولينيالى»

(١) جريدة «يديعوت أحرونوت»، الإسرائيلية، ١٩٨٤/٥/٤.

وحشى، يدمر إنسانية الإنسان اليهودى، ويشحنه فكرياً وسياسياً وأخلاقياً للقيام بأبشع أشكال القمع والكراهية الفاشية للإنسان العربى، ويطور أيديولوچية ممسوخة وعرقية، تعتبر الإنسان العربى مخلوقاً وضيعاً، لتبرير استعباده.. وحتى قتله»(١).

وضمن هذا المناخ ينمو التطرف الدينى، ويجد تبريراته «اللاهوتية» التحريضية، فإذا كانت «نظرة الأمن الإسرائيلى» لا ترى فى المناطق العربية المحتلة هدفاً بحد ذاته، بل «وسيلة دفاع» عن الدولة، نلاحظ «أن الأيديولوجية الدينية ترى فى الاحتفاظ بالمناطق المحتلة، وبالتالى استمرار الاحتلال، هدفاً مقدساً بحد ذاته»(٢).

ولا ينجو من هذا المآل الخطير حتى النساء، وحتى المولودات فى «الغرب المتحضر» منهن، بل وحتى الأمهات، بعد أن أصبحن جزءاً من تروس آلة الكراهية والعنف الإسرائيلية الجهنمية هذه، ففى «شهادات إسرائيلية»، كتاب «عاموس عوز» الشهير، يذكر على لسان أم من يهود نيويورك، إسمها «هاربيت»، أجرى معها حواراً شديد الدلالة، بسطه خلال سطور كتابه، تقول فيه «هاربيت»:

«كان علينا فى أيام الحرب الستة وفى حرب يوم الغفران ألا نتوقف قبل أن نسحق العرب جميعاً حتى يعلنوا الاستسلام الكامل، كان لابد من تدمير عواصمهم كلها. إنها حرب دينية.. حرب مقدسة عندهم وعندنا، حرب ضد الإسلام كله وحرب ضد الكفّار»(٣).

هكذا إذن يتم شحن العقول، وتعبئة الأفئدة، بمعين لا ينضب من

(١) درويش ناصر (المحامى) مصدر سبق ذكره، ص ص: ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر عرض للكتاب فى: شوقى رافع، شهادات إسرائيلية: مجتمع يضج بالعنصرية والعنف، مجلة «العربى»، الكويت، العدد (٤٢٠)، نوفمبر ١٩٩٣.

الكراهية والأحقاد والسخائم التى تزداد تضخماً مع كر الأيام، ويحيا هؤلاء المهروسون - بأثر من تربيتهم وتثقيفهم المستمر بروح العداء والنفور من «الأغيار» والرغبة فى الانتقام من «الجوييم» - مشبعين بأفكار جنونية، عنصرية وشاذة، لا يزيدها التراجع فى التصدى لعنصريتها وعدوانيتها إلا استفحالاً.

«إن الخطر فى الوعظ الدينى العنصرى، وفيما يُكتب فى الصحافة الصادرة عن مؤسسات دينية، (ونحن نعرف هذا جيداً هنا فى مصر) هو أن التلاميذ يُنَفِّذُون ببنادقهم ما دعا إليه أساتذتهم بأقلامهم، والأخطر من ذلك، حين يصبح التصدى لهذا النوع من العنصرية والجنون، مبرراً للاتهام بـ «الكفر» و«الخيانة»، والطرد من الدين والوطن والملّة.. وبمعنى آخر لإعلان «المروق»، كدعوة تحريضية لا تُرد، من أجل التصفية.. والقتل، باسم «الرب الإله».

■■■

إن الصهيونية تدنيس للقدسية، ومناقضة للديانة اليهودية، لأنها تسيطر بالقوة وتضطهد الآخرين.

لقد تم الإعلان عن الفلسطينيين كأعداء، لأنهم يشكلون عقبة أمام المطامع الإقليمية الصهيونية ونحن اليهود الفلسطينيين، قد عشنا بسلام خلال مئات السنين مع هؤلاء الأعداء للصهيونية، ونحن نطمح باستمرار هذه العلاقة رغم المعارضة الصهيونية.

«الحاخام هيرش»

طائفة ناطورى كارتا